واقع ومستقبل الرواية الفلسطينية

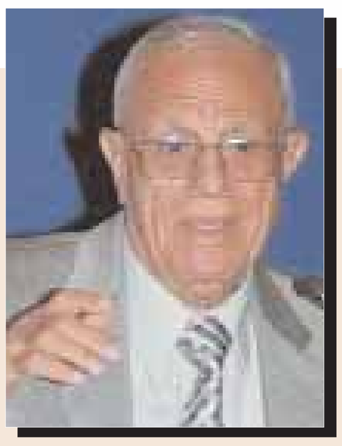

حسام الخطيب

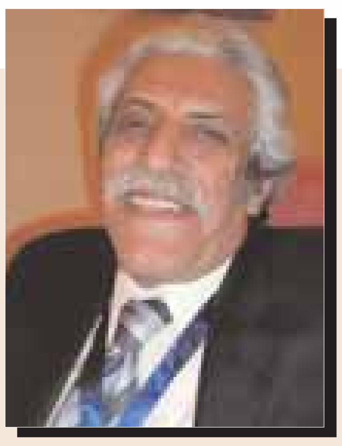

سلطان القحطاني

حسين جمعة

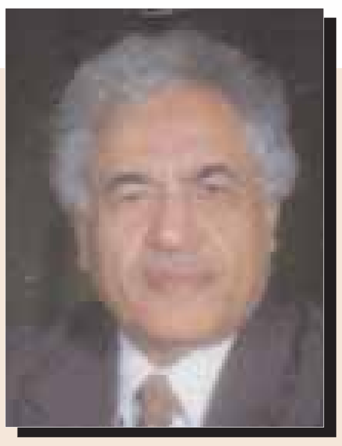

يوسف جاد الحق

نعمة خالد

حسام الخطيب: القضية الفلسطينية تمر بأحلك حالاتها ويصعب التنبؤ بالمستقبل

سلطان القحطاني: المضمون الجديد للرواية الفلسطينية يكمن في خروج بعض الأقلام من إطار الرومانسية

حسين جمعة: تستطيع الرواية الفلسطينية أن تعيد إلى الذاكرة العربية حلم التعلق بفلسطين والتشبث بها

يوسف جاد الحق: الجيل الجديد يملك الحماسة والشجاعة لمواصلة النضال في قضية مجهولة المستقبل وهو ما يدعو للبحث عن رؤى ومخارج جديدة في الفن والثقافة

نعمة خالد: الرواية الفلسطينية تشهد انفجاراً في المعنى والسرد وبناء الشخصيات والمضمون

دمشق - الوطن:

استطاعت الرواية الفلسطينية أن تحقق حضوراً خاصاً في المشهد الروائي العربي، ورغم أنها جزء لا يتجزأ من هذا المشهد إلا أنها تتمتع بخصوصية تنبع من أهمية القضية الفلسطينية التي لم ترتقِ لمستواها حتى الآن، وإن تعددت الآراء واختلفت وجهات النظر حول واقعها ومستقبلها إلا أن أحداً لا ينكر أنها نجحت في أن تكون حاملاً حقيقياً لمعاناة الشعب الفلسطيني داخل وخارج الأرض المحتلة بفضل كتّابها المنتشرين في جميع أنحاء العالم، وقد انتهز "أشرعة" فرصة انعقاد مؤتمر الرواية الفلسطينية في دمشق الشهر الماضي والتقى بالعديد من المشاركين فيه للوقوف على واقع ومستقبل هذه الرواية والتطورات التي طرأت عليها..

حضور عالمي

يؤكد د.حسام الخطيب أن الرواية الفلسطينية تلقى ارتياحاً وإقبالاً عربياً ومحلياً، معالجة القضية الفلسطينية من الناحية الإنسانية ما زالت مستمرة، ويبين أن التجربة الفلسطينية أكبر من أي كاتب، لذلك يوجد مجال دائماً للانتقال من مرحلة إلى أخرى، كما يشير د.الخطيب إلى أن الرواية الفلسطينية حققت حضوراً عالمياً، حيث تُرجِمَت روايات كثيرة شهدت إقبالاً شديداً.. والرواية الفلسطينية تنقسم إلى قسمين: الأول الرواية التي يكتبها كاتب فلسطيني عن جوانب القضية الفلسطينية من جهة المعاناة في ظل الاحتلال وهل هناك مستقبل وهذا سؤال لم تستطع أية رواية أن تجيب عليه، والثاني الرواية التي تدور حول مأساة الخروج من فلسطين، ويذكر الخطيب أن سيل الروايات توسع بحيث أصبحت تتابع الإنسان الفلسطيني وليس الرمز الفلسطيني، فأصبح فيها حيوية واضحة تماماً، تشجع الإنسان أن يقرأها، سواء كان القارئ مع القضية أم لا، وهذا تطور جيد برأيه، فالروائيون يتنافسون اليوم، والنقاد لا يستطيعون متابعة رواياتهم، كما يوضح أن الرواية الفلسطينية الجديدة تختلف عن رواية غسان كنفاني شكلاً ومضموناً، وكل جيل من أجيال الرواية الفلسطينية يلمس فيه مزيداً من العمق والأنسنة معاً، ومزيداً من محاولات عدم المبالغة لا تقهقراً كما يرى البعض، كما أصبح كل كاتب فلسطيني - كما يقول الخطيب - يشعر أن عمله قد يُتَرجَم فأصبح واعياً وأصبح هناك نوع من التركيز التحليلي على القضية الفلسطينية والإنسان الفلسطيني، ويبدو أن الخطيب متفائل بمستقبل الرواية الفلسطينية الذي لا يراه مسدوداً كما يدّعي البعض، وهو بذلك يكون عكس مستقبل القضية الفلسطينية: "إن القضية الفلسطينية اليوم تمر بأحلك حالاتها ويصعب التنبؤ بالمستقبل إلا إذا كان لدى الإنسان إيمان داخلي قوي حتى وإن كان بعيداً عن المنطق خاصة وأن كل الشواهد تشير إلى أن الوضع الفلسطيني في انهيار".

جزء من الرواية العربية

يرى د.سلطان القحطاني أن مستقبل الرواية الفلسطينية كمستقبل أية رواية عربية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ منها طالما أن الهم الذي تحمله الرواية الفلسطينية هو همُّ الأمة العربية عموماً، ويشير القحطاني إلى خصوصية الرواية الفلسطينية عند الروائي داخل الأرض المحتلة حيث يعايش الروائي كل يوم المشاكل والصعوبات التي يسمعها الآخر عن طريق وسائل الإعلام، في حين أن الكاتب الفلسطيني خارج فلسطين يعيش حياة الإنسان العربي الذي يحمل هماً، مع ارتباطه بخيط رفيع مع أهله في الداخل، ويأخذ القحطاني على الرواية الفلسطينية كثرة الإنتاج في الوطن العربي، وهذا بدوره يكون دائماً على حساب النوعية، ويعتقد أن هذا الخوف من كثرة الإنتاج مبرر، مع اعترافه بوجود كتّاب جيدين وآخرين غير ذلك كما في كل الأمور، ولكن يبقى ما يميز الرواية الفلسطينية - برأي القحطاني - انها مرتبطة بالأحداث الموجودة، فهي مَعينها، ولكن في المقابل يرى أن هذه الأحداث باتت مكررة، لذلك فهو يحذر الروائي الفلسطيني من التهافت على الأحداث القديمة: "وهذا ما هو قائم في بعض الأعمال الروائية".. ولقناعته أن الرواية الفلسطينية جزء من الرواية العربية بما فيها الفلسطينية تعيش مجدها اليوم، ويشير إلى مجموعة من الروائيين الشباب الذين بدأوا بنوع من التجريب، فبرع بعضهم في ذلك، والبعض الآخر لا، ويوضح القحطاني أن المضمون في الرواية عموماً والرواية الفلسطينية بشكل خاص هو الأهم لأن الشكل ما هو إلا تابع له، لذلك فإن المضمون الجديد للرواية الفلسطينية يكمن في أن بعض الأقلام خرج من إطار الرومانسية التي كانت يتبعها بعض الكتّاب كجبرا ابراهيم جبرا لأنها أصبحت ممجوجة، إضافة إلى تجاوز مرحلة المقاومة التي استُهلِكت في كتابات بعض الروائيين، لذلك حاولت الأقلام الجديدة - كما يشير القحطاني - الخروج من هذين الموضوعين باتجاه البحث عن ملامح الإنسان الفلسطيني وحياته الاجتماعية التي كانت شبه مغيّبة في الأعمال السابقة باستثناءات قليلة ككتابات سحر خليفة وغسان كنفاني، وهذا ما انتبه إليه أبناء الجيل الجديد في كتاباتهم.

حلم التعلق

يتفق د.حسين جمعة مع ما قيل حول أن الرواية الفلسطينية هي جزء لا يتجزأ من الرواية العربية فنياً ودلالياً ووظيفياً شئنا أم أبينا، مع خصوصيتها التي تحملها من خلال التركيز فيها على معاناة الشعب الفلسطيني وما يتطلع إليه في الحديث عن حالة حلم العودة والحديث عن سوط الشتات واللجوء، ولكنه يؤكد أن الرواية الفلسطينية اليوم تستطيع أن تعيد إلى الذاكرة العربية وذاكرة الأجيال حلم التعلق بفلسطين والتشبث بها والانتماء إليها: "كنا سابقاً لا نعرف كثيراً عن خارطة فلسطين لكننا اليوم صرنا نعرف الكثير ليس فقط من خلال الرواية وإنما من خلال عدد من الأجناس الأدبية".. لكن الرواية برأي جمعة تبقى الأهم لأنها ترسم واقعاً سواء أكان متخيلاً أم موازياً للواقع التاريخي، كما لا ينفي د.جمعة قدرة الرواية الفلسطينية على معالجة الموضوعات المختلفة.

مزيد من الفاعلية

يعترف الكاتب يوسف جاد الحق أن الرواية الفلسطينية حتى اليوم وبعد صدور نحو ٢٠٠ رواية في الموضوع الفلسطيني "وهو عدد قليل" لم تعطِ القضية الفلسطينية حقها، ليس تقصيراً من جانب الكتّاب وإنما لأن القضية كمأساة ومقاومة أكبر بكثير من الإمكانيات التي رأيناها حتى الآن في المشهد الروائي والأدبي، حيث إن الرواية الفلسطينية كانت في أغلب الأحيان تعتني بفنيتها أكثر من الاهتمام بالموضوع الفلسطيني، حيث كان كل كاتب - برأي جاد الحق - يكتب وفي ذهنه ردود فعل النقاد والجمهور على ما سيكتب بدلاً من أن يكون الاهتمام منصباً على رواية حقائق القضية الفلسطينية ومعالجتها بعمق، وبذلك فإن الرواية التي لا تعبِّر عن شعبها ومأساته وقضيته وليس لديها فكرة ولا موقفاً لا قيمة لها كما يشير جاد الحق، وإن فعل الكاتب ذلك فهو ينتهج مقولة الفن للفن، وهذا مرفوض بالنسبة للرواية العربية بشكل عام، والرواية الفلسطينية بشكل خاص، لذلك يطالب جاد الحق الرواية العربية والفلسطينية أن تكون هادفة وملتزمة لا بإيديولوجية معينة وإنما بقضية الوطن، وهذا هو الالتزام الحقيقي - برأيه - خاصة وأن القضية الفلسطينية قضية معقدة تتعرض للتجاهل قبل الحل، لذلك فإن الروائي مطالَب أن يتحدث عنها لإيصالها إلى العالم حيث لا جدوى من أن تكون رواية للأهل والأصدقاء والأشقاء.. إذاً فالمطلوب الفاعلية من هذه الرواية، والفاعلية كما يشير جاد الحق غير موجودة حتى الآن بالنسبة للرواية الفلسطينية.. كما يأخذ جاد الحق على الرواية الفلسطينية الجديدة اهتمامها بالشكل كما حدث في قصيدة النثر والقصة القصيرة جداً، وهذه ناحية تهم الكاتب الذي يريد أن يثبت أنه يستطيع أن يكتب بطريقة جديدة بحيث تحول هذا الهاجس عند البعض إلى هدف بحد ذاته، وهذا خطأ كبير، والدليل أن جاد الحق لم يرَ معالجات جديدة ناجحة، مع وجود استثناءات قليلة توجهت باتجاه خدمة القضية، مع تأكيده على أن الجيل الجديد مازال يملك الحماسة والشجاعة لمواصلة النضال في قضية مجهولة المستقبل وهو الذي سيدعو للبحث عن رؤى ومخارج جديدة وطرق جديدة للمعالجة سواء في الفن أو في الثقافة أو النضال.. ويبدو جاد الحق مع كل ما سبق ذكره متفائلاً بالمستقبل: "المستقبل قد يعطينا أفضل مما هو قائم لأن القادمين سينتفضون على ما سبق".

نكهة محلية

يشير ابراهيم خليل إلى أن الرواية الفلسطينية نشأت منذ بدايات القرن العشرين كمثيلتها العربية، وكانت تلك البدايات على يد كتّاب تأثروا بالأدب الغربي كخليل بيدس، وقد ظهرت هذه الأعمال على شكل قصص مسلسلة في مجلات وصحف لتطبع بعد ذلك وتُنشَر في كتب ولتمر بمراحل متعددة، فظهر روائيون متميزون كجبرا ابراهيم جبرا وغسان كنفاني، ويبيّن خليل أن حركة التأليف الروائي بعد العام ١٩٦٧ ونتيجة المقاومة داخل الأرض الفلسطينية، ومع تزايد الوعي بأهمية الرواية في فلسطين أفرزت جيلاً من الكتّاب أغنوا المكتبة العربية كرشاد أبو شاور وليلى الأطرش وسحر خليفة وقد تناولوا الهم الفلسطيني سواء من حيث المكان أو الزمان أو التاريخ أو الصراع العربي - الصهيوني بلغة تعكس خصوصية الواقع الفلسطيني: "الرواية الفلسطينية رواية عربية لكنها بنكهة محلية تتحدث عن الإنسان الفلسطيني وعلاقته بالمخيم والشتات ويحن لمسقط رأسه فيتصور القرية التي كان يعيش فيها".. وهذا ما جعل الرواية الفلسطينية - برأيه - تكتسب جماليات مرتبطة بالخيال والحنين والتوق للعودة.

رواية المكان

وصف د.أحمد حيدوش الرواية الفلسطينية بأنها رواية المكان بالدرجة الأولى حيث تبنى كل الأحداث المرتبطة بهذا المكان الذي يصنع الفضاء الروائي بكل تحولاته، وبالتالي فإن الحديث عن الرواية الفلسطينية هو حديث عن رواية فلسطين، ويشير إلى أن الروايات التي اتخذت من فلسطين مكاناً لها كثيرة ومتعددة، وبالتالي فإن الرواية الفلسطينية - برأيه - ليست فقط هي المكتوبة من قبل روائي فلسطيني، وهذا ما يجعله يرفض فكرة تجنيس الرواية الفلسطينية بجنسية كاتبها فقط لتكون كل رواية عربية كُتِبَت عن فلسطين هي رواية فلسطينية.. وكجزائري يؤكد أن العمل الفني والأدبي مهما ارتقى فلن يرتقي إلى مستوى القضية الفلسطينية وما تتطلبه من جهود فنية، فالرواية الفلسطينية التي نقرأ فيها حياة الفلسطيني واللجوء وإن حاولت جاهدةً أن تفعل إلا أنها مازالت بعيدة عن التماس حقيقة القضية الفلسطينية وجوهر معاناة الإنسان الفلسطيني على اعتبار أن القضية بحد ذاتها تتطلب جهوداً روائية وفنية كبيرة لتصبح محور كل عمل فني وأدبي عربي.

المخيم ليس صنيعتي

ترى نعمة خالد أن الرواية الفلسطينية مرت بمراحل ثلاث: مرحلة ما قبل النكبة وحاولت فيها الرواية أن تتلمس طريق الرواية كفنٍّ كحال الرواية العربية بشكل عام، وقد حاولت في هذه المرحلة أن ترصد ثنائية الأنا الفلسطينية و(المهاجر) الإسرائيلي القادم وانعكاس ذلك على البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الداخل، وبعد العام ١٩٤٨ زمن رواية النكبة التي حاولت أن ترصد حال اللجوء والتحول السوسيولوجي والنفسي والاقتصادي لهذا المجتمع الذي رُحِّل قسراً من أرضه فلسطين، وتذكر على سبيل المثال روايات عدنان عمامة وعارف آغا واميل حبيبي وغسان كنفاني التي رصدت حالة اللجوء وحالة المخيم ومعاناة الشعب الفلسطيني في الخارج، ومع انطلاقة الثورة عام ١٩٦٥ صار هناك تحول في الرواية العربية بشكل عام، والفلسطينية بشكل خاص، فأصبح المد القومي وحالة المقاومة ثيمة أساسية في الرواية الفلسطينية، فظهر في هذه الروايات البطل السوبرمان الذي لا يُقهَر، ولكن بعد انطلاق الثورة والانتكاسات التي مرت بها مسيرة الثورة الفلسطينية ظهر جيل جديد من الكتّاب حاول أن يتمثل الواقع، فبدلاً من السوبرمان الفلسطيني الذي لا يُقهَر في الرواية الفلسطينية صار الفدائي شخصاً عادياً، يخاف، يحب، يكره، مثله مثل أي إنسان آخر، كما تعرضت الرواية الفلسطينية إلى تحولات كثيرة في بناء الشخصيات الروائية، فأصبحت الرواية لا تشتغل على الهم السياسي بل انتقلت إلى رصد الهم الاقتصادي والاجتماعي والإنساني للحالة الفلسطينية بشكل عام "كروايات سحر خليفة وليلى الأطرش وحسن حميد وتجربتي الروائية التي تحدثت عن التحول السوسيولوجي والتبدل في الهوية الفلسطينية الذي حدث في فترة الاجتياح ١٩٨٢".. وتعترف نعمة خالد أن الكتّاب الروائيين الفلسطينيين يشتغلون اليوم بطريقة مختلفة عن طريقة جبرا ابراهيم جبرا واميل حبيبي وغسان كنفاني وإن تأثروا بهم إلا أنهم خرجوا من عباءتهم، فصار هناك انفجار في المعنى والسرد والرواية وبناء الشخصيات، وحتى في المضمون، وتشير خالد إلى أنها كفلسطينية لا تستطيع أن تخرج من جلدها فهي مازالت ابنة مخيم وإن كتبت فستكتب عن القضية الفلسطينية ولكن ليس بطريقة غسان كتفاني وإنما بطريقة ابنة المخيم، وتوضح أن ما أُخِذ عليها أنها لا تقدس المخيم في كتاباتها كما حاول بعض الكتّاب أن يفعلوا ذلك وأن يجعلوا منه رمزاً بل هي حاولت أن تنقد هذا المخيم: "المخيم ليس صنعي ولولا النكبة لما كنتُ ابنة مخيّم".. إذاً هناك جيل جديد من الكتّاب الفلسطينيين تجاوزوا من سبقوهم فنياً وعلى صعيد المضمون، وتبدو خالد متفائلة بمستقبل الروائية الفلسطينية خاصة وأنها مطلعة على المشهد الروائي الفلسطيني من الداخل الذي يضم مجموعة من الروائيين الكبار الذين يحاولون تقديم مشهد جديد في الرواية الفلسطينية مثل هالة البكري وزياد خداش والعديد من الأسماء الذين ترجموا فنياً وبطريقة لا يمكن لأحد أن يترجمها حالة التماس المباشرة مع العدو.